المصدر: صباح الخير

التاريخ : ١٩٩٢/١/٢

السادات والوفد

فصل من كتاب « السادات الذى عرفته »

« السادات الذى عرفته » كتاب جديد بقلم الزميل عبد الستار الطويلة يصدر قريباً .. وهو يتناول بعض نواحى سياسة السادات وأسلوبه فى التعامل مع الناس والقضايا المختلفة من خلال علاقته الوثيقة به التى استمرت أكثر من ثلاثة أعوام .. دارت بين السادات وبينه مناقشات وحوارات مستفيضة حولها .. وقد اختارت صباح الخير هذا الفصل الهام من الكتاب لتقدمه لقرائها !

عبد الستار الطويلة

ريشة : جمال هلال

السادات هو الذى أعاد الحياة الحزبية لمصر .. بدأها بثلاثة فقط : حزب مصر ، وحزب الأحرار ، وحزب التجمع ..

ثم بعد ذلك سمح القضاء بعودة حزب الوفد تحت اسم الوفد الجديد .. وبارك السادات ذلك الحكم القضائى .. ولكنه بعد ١٨ و١٩ يناير فى هوجة ضربه للديمقراطية ، تنكر للوفد ، وعزل قادته ومنهم الرجل الثانى فى الحزب المرحوم عبد الفتاح باشا حسن الذى كان يتغزل فيه مدحاً كل يوم تحت قبة البرلمان ..

ذات مرة دعانى أنور السادات للعشاء ، وكان معه ممدوح سالم رئيس الوزراء حينذاك .. وأثناء العشاء فتح الرئيس الحديث عن موضوع المنابر .. وكانت هذه أول خطوة على طريق الأحزاب وتشكيلها .. حيث كان هناك تنظيم سياسى واحد فى البلاد هو الذى كان موجوداً أيام جمال عبد الناصر وهو الاتحاد الاشتراكى العربى .

وكان هناك داخل النظام معارضة قوية لإنشاء منابر داخل الاتحاد الاشتراكى ، وعلى رأس تلك المعارضة كان المرحوم د . فؤاد محيى الدين وباللغرابة .. فقد كان فؤاد محيى الدين هو السياسى الوحيد الذى استمر مع الثورة منذ قيامها ، وكان من أبرز العناصر الطلابية فى النضال الديمقراطى ، فقد عاش فترة من حياته السياسية تحت علم اليسار الماركسى .. وكان سكرتيراً عاماً للجنة الوطنية للطلبة والعمال ..

واتخذ موقفاً معادياً تماماً لأى منح للحرية للتيارات السياسية داخل الاتحاد الاشتراكى . . واختط المرحوم خطة ثابتة ضد حرية التعددية الحزبية طوال حياته منذ تلك الفترة ، بل إنه كان معادياً تماماً للحوار السياسى . . أو لأى اتجاه للجبهة بين الأحزاب بعد السماح بإقامتها . . وهذا كلام أقوله من خلال علاقتى الوثيقة به . . التى استأنفتها معه بعد انقطاع بسبب السجون والمعتقلات منذ عين محافظاً لمحافظة الشرقية حتى أصبح رئيساً للوزراء وتوفاه الله . .

وكانت المناقشات بينه وبينى تصل إلى مستويات حادة أحياناً . . لكن الود بيننا لم يفسد قط . . خصوصاً أنه لم تكن لى حاجة عنده قط . ورغم أنه كان مستبسلاً فى عدائه لليسار . . فى تلك الليلة التى كنت فيها معه هو وممدوح سالم كان جذلاً طروباً . . فقد كان قد أعلن عن إنشاء المنابر . .

قال لى وهو يضحك من أعماقه . . أظن أنا عملت بلبلة فى صفوفكم أنتم بالذات . . عاملين أنفسكم أبو العريف . . ولكن بلبلت أفكاركم !!

كان السادات يشير إلى رفض كثير من الشيوعيين حينذاك لقيام أحزاب باعتبار أنها ستكون أحزاباً برجوازية تضيع مكاسب الثورة وتصفيها . . وبالتالى لم يكن هؤلاء سعداء باتجاه السادات لإقامة المنابر . . وكان يشاركهم الناصريون طبعاً المعادون لأى اتجاه ديمقراطى باعتباره الطريق لإضاعة الثورة . .

فى تلك الفترة كان التفكير الشمولى المستمد من النظم الاشتراكية فى العالم والذى يدعو إلى معارضة إقامة أحزاب غير الحزب الثورى الحاكم - هو المسيطر على عقول معظم اليساريين فى العالم . . وكان من يؤمن بغير ذلك إنما هو برجوازى وغد زنيم .

● قلت للرئيس السادات . . والله ياريس هناك الكثيرون منا قد غيروا أفكارهم وزالت الغشاوة عن عيونهم . . وأصبحوا يؤيدون إقامة حتى أحزاب وليس منابر . . والأفكار القديمة مرتبطة بحكم الحزب الواحد طويلاً وحكاية تحالف قوى الشعب العاملة . . إلخ . .

كان السادات يلح فى حكاية أنه أحدث بلبلة وقلقاً فى تفكير القوى السياسية وخاصة اليسار . قال لى مرة : إن عبد الناصر كان كلما فكر فى اتخاذ قرار ما وضع الشيوعيين أمامه على الترابيزة وتساءل ماذا سيكون موقفهم إزاء المشكلة التى تواجههم . . لقد كان يضخم فى قوتهم ويحاول تلافى رد فعلهم إزاء القرارات التى لا تعجبهم !

كان يضرب قوة خصومه - يرحمه الله - فى عشرة !

هأنا أرى السادات نفسه يحاول أن يعرف ويستجلى ماذا سيكون موقف اليسار بالنسبة لطرح فكرة التعددية الحزبية فى مصر . .

وهنا وجدت السادات يدخل بالحديث فى ناحية أخرى سبق له أن طارحها معى . . لكن كما سيرى القارىء فى هذه المرة كان الموقف أصرح وأوضح .

قال لى فجأة . . يعنى أنت عمال تتكلم عن اليسار والشيوعيين والماركسية . . هو إحنا ماقدرناش نحركك شوية عن أفكارك . . ماتسيبك من اللى فى دماغك ده . . !

وجدت كل خلايا عقلى تتنبه . . وتتحفز . . وشعرت كما لو كنت داخلاً على كمين . .

● الوفد والتيار الدينى

ولقد بدأنا حديثنا عن أنور السادات والديمقراطية . . بالحديث عن موقفه وعلاقته باليسار لثلاثة أسباب . .

● أولها أنه كان وماّزال المقياس الرئيسى لديمقراطية أى نظام هى موقفه من عملية منح اليسار حرية العمل السياسى . . فالفكر اليسارى تعبير عن فكر لقطاع للمجتمع . . وطالما لم يستخدم القوة بل مارس نشاطه عن طريق القنوات الشرعية العادية . . فلا يوجد أى مبرر لمنعه من حرية النشاط

● ثانياً : أن السادات تسلم الحكم بعد وفاة زعيم لفصيلة من فصائل اليسار وهو جمال عبد الناصر وأنصاره من الناصريين . . فالناصرية تعنى منهجاً لصالح الطبقات الشعبية الكادحة . . واتخذت إجراءات ضد الرأسمالية الأجنبية والمحلية . . ولئن كانت تختلف عن الماركسية وشنت حرباً عليها

ولذلك كانت الأنظار متجهة إلى معرفة نوايا واتجاهات الحاكم الجديد تجاه اليسار . . من منطلق الحرص على ثورة ٢٣ يوليو ومنجزاتها . .

وكان الشيوعيون وهم فصيلة من فصائل اليسار يؤيدون زملاءهم الناصريين فى الحكم ويؤيدون جمال عبد الناصر رغم فترات التناقض التى حدثت بينه وبينهم

فكان موقف السادات مرصوداً بالنسبة لهم . . لأنه انعكاس لموقفه من عبد الناصر ومنجزاته من ناحية أخرى .

● ثالثاً : إن السادات تسلم السلطة ومصر على علاقة صداقة حميمة بالاتحاد السوفيتى وبين البلدين روابط اقتصادية وثقافية وسياسية كبيرة . . بل كانت توجد فى مصر قوات سوفيتية جاءت للمساهمة فى الدفاع عن مصر بناء على طلب جمال عبد الناصر .

وكان اليساريون على اختلاف فصائلهم يؤيدون هذه الصداقة المصرية السوفيتية ويتشبثون بها بإصرار .

ولكن ماذا كان موقف أنور السادات من القوى السياسية الأخرى ؟

فى عهده ترعرعت قوى التيار الدينى . . ولا نريد أن نخوض كثيرا فى هذا الموضوع فمعروف أنه هو الذى بعث بذلك التيار حياً للنشاط السياسى من

جديد . . وتكررت نفس القصة التقليدية للتيار الدينى فى مصر . . إذ دائما كانت السلطة تستخدمه ضد خصومها السياسيين ويقبل هو هذا الدور حتى يكبر ويتضخم . فيبدأ يعمل لحسابه فيقع فى تناقض مع السلطة التى استخدمته

هكذا حدث أيام الملك فاروق . . ثم أيام عبد الناصر . . وأيام السادات . . الحاكم المصرى الوحيد الذى لم يحاول نفس التجربة هو مبارك

● الموقف من الوفد :

لكن فى عهد السادات ظهرت قوة سياسية جديدة هى حزب الوفد الجديد . . وقد كان السادات موافقا على ظهوره فى البداية . . ثم عاد فانتكس عليه . . وانقلب على شخصيات بارزة فيه مثل المرحوم عبد الفتاح حسن باشا . .

ولن ندخل فى تفصيلات كثيرة عن تلك الفترة واختلاف المواقف سأتحدث هنا عن حوار دار بينى وبين السادات حول هذا الموضوع . . وأعتقد أنه يلقى الضوء على مغزى تصرفات السادات . .

عندما تأسس حزب الوفد الجديد ابتهج الناس . . لعودته كعلامة من علامات الديمقراطية فى البلاد . . وعارض عودته ثلاثة فرق من المواطنين . .

● الفريق الأول هم الطفيليون الذين انزعجوا من احتمال سيطرة هذا الحزب ذى التراث التاريخى وسط الشعب المصرى . . وتوليه الحكم والاتجاه إلى تشجيع الرأسمالية الوطنية المنتجة فعلا ، وحصر نشاط الطفيلية المخرب للاقتصاد الوطنى . . وهذه الطبقة معادية للديمقراطية خوفا على مصالحها بينما الوفد حزب الديمقراطية التقليدى . .

● الفريق الثانى هم الناصريون الذين يعتقدون أن بينهم وبين الوفد « تار بايت » وأنه إذا ما عاد للحياة السياسية والحكم ، فسيصفى الثورة ويطمس تاريخ زعيمهم .

● الفريق الثالث : هم كثيرون من الشيوعيين والماركسيين الذين كانوا ومازالوا يتشبثون بفكرة النظام الشمولى . . ويعتقدون أن حزب الوفد حزب بيفى معاد للإصلاح الزراعى وللتأميم ولذلك سيصفى الثورة أيضاً .

ولو أن الأمور سارت سيرها الطبيعى فى مجال الديمقراطية لكانت الخريطة السياسية لمصر قد تغيرت كثيراً . .

فمن الأرجح أن أكبر حزبين سياسيين كانا سيكونان حزب الحكومة وحزب الوفد يليهما حزب يمثل التيار الدينى الذى كان يتقوى . . ثم حزب اليسار الذى كان قد حصل فى أول انتخابات حرة نسبيا فى عهد السادات على ٩,٥٪ من مجموع الأصوات . .

وبدأت تتردد فى الأوساط السياسية تصورات للموقف والمستقبل السياسى . . ووضعت معادلة على الوجه التالى :

الأمريكيون يريدون القضاء على ثورة ٢٣ يوليو نهائيا .
الوفد عدو ثورة ٢٣ يوليو ويريد تصفيتها .
إذن الأمريكيون يمكن أن يناصروا الوفد كبديل لنظام أنور السادات لتصفية الثورة . .

أثرت مرة هذا التصور أمام أنور السادات . . وكان يسألنى أسئلة عديدة عن تفاصيله كما لو كنت قد قرأت عنه فى كتاب . .

ثم سألنى : ما رأيك أنت ؟

● قلت . . ياريس . . أنا الذى أريد أن أنتفع بحكمتك . . ورؤيتك كرئيس الجمهورية والأمين على ثورة يوليو . .

ولكنه طلب أن يسمع رأيى أولاً . .

● قلت . . حكاية الربط بين أمريكا وحزب أو فرد ما . . يجب أن نأخذها بحذر . . هناك مصالح . . وهناك تقابل فى المصالح . . مثلا الوفد مصلحته فى نشر الديمقراطية . . وأنا مصلحتى فى الديمقراطية إذن أؤيد الوفد فى مطلبه رغم أنى لست وفديا . .

أنا رأيى أن الأمريكان لا يريدون تصفية ثورة ٢٣ يوليو بمعنى القضاء على نظامك فى الوقت الحالى . . هم يخشون من حاجة واحدة . . أن يعود إما الناصريون ومعهم باقى اليسار إلى الحكم أو يسيطر التيار الدينى على السلطة . .

وهم طبعاً لابد أن يطرحوا على أنفسهم من يحل محل نظام سيادتك إذا جرى له أى شىء لاقدر الله ؟ .

ويسألون بالتالى أنفسهم من هو البديل . . الذى يحول دون أخذ الناصريين أو الإخوان المسلمين الحكم ؟

ضحك السادات وهو يستمع باهتمام . . فقد كان ـ رحمه الله ـ مستمعاً جيداً

ـ آه حكاية البديل دى باسمعها من كل واحد فيكم . . ياأخويا انتم بتجيبوا الكلام ده منين ؟!

فإذا ما نظر الأمريكيون للخريطة السياسية فى مصر . . وجدوا حزب الوفد ـ أيضاً ـ لابد يسألوا نفسهم باترى هل هذا يمكن يقود السفينة . . ويحمى البلد من دول ودول ؟ . .

سيقول لهم واحد عندهم . . ماتنسوش الوفد ده بتاع الحركة الوطنية . . واللى حارب الانجليز . . ورفض طلب أمريكا بالحلف العسكرى . . وحصل تغيير دلوقت . . يعنى الموضوع يبحث وأنا أسمع إن عندهم أعظم معاهد للدراسة والبحث وقرأت فى لعبة الأمم الذى لابد سيادتك قرأته أنهم يعملون مجموعات عمل للتصور والحوار .

هز السادات رأسه قائلاً لى . كويس إنك بتفكر بطريقة استراتيجية .

ضحكت وقلت له : ما تنساش ياريس إن إحنا قعدنا نكافح ونعد نفسنا تلاتين سنة للحكم !

قال : ما تنفعوش . . تفكيرك غلط .

سألته باهتمام : ازاى ؟

قال الأمريكان عايزين حاجات أبعد مما تظن . . بديل إيه بتاعكم ده . . أنا اللى عارف أمريكا عاوزه ايه .

وهم يريدون إذا كبر الوفد يساعدوه كى يرجع حكم زمان من غير ملك . . ثم يتخلصوا من الوفد بعد كده . . لأن لهم أهداف كبيرة قوى . . مافيش حد فى مصر يقدر عليها علشان الوطنية المصرية فى قلب كل مصرى .

لم أفهم جيدا ماذا كان يعنى السادات بالضبط لأننى لما سألته الاستيضاح . سكت ولم يجب .

ولكنى فهمت شيئا واحدا أن السادات كان يدرك أنه إذا ترك حزب الوفد ينشط . . فإن الحزب سيقوى . . ويمكن أن يأخذ السلطة منه هو شخصيا . . ويمكن أن يساعده الأمريكيون فى هذه الحالة كمرحلة مؤقتة . . ينقضون عليه بعدها . . لماذا . . ومن أجل ماذا ؟ لم أفهم .

ولكنى عندما أتأمل ما يحدث اليوم على المسرح العربى بل والعالمى ، أدرك الآن ماذا كان يقصد السادات . . لاشك أنه كان يقصد سيطرة أمريكا الكاملة على المنطقة . . وقد كان . . وهو أمر تعارضه كل القوى الوطنية المصرية ومن بينها الوفد . . ولم تعد المسألة مسألة تصفية ثورة ٢٣ يوليو . . فالذى يصفى إنجازات هامة منها هو رد فعل الانهيار العالمى للاشتراكية بالإضافة إلى الهمة والنشاط اللذين تمارس بهما قطاعات هامة من الحزب الوطنى الديمقراطى نفسه تصفية تلك المنجزات دون أى علاقة بالوفد أو غيره بها !

أما باقى قطاعات الشعب . . فإنه لا يجب أن ينسى اولئك اللذين يهاجمون السادات بالحق والباطل ، أن العشر سنوات التى قضاها فى الحكم خلت من المعتقلات تماماً . . بل كان أنور السادات يحذر الشعب من عودة المعتقلات . . ولم يحدث أن أمضت مصر عشر سنوات متتالية دون اعتقال ومعتقلات منذ إعلان الحرب العالمية الثانية ، وخلال عصر السادات لم يكن هناك تعذيب يذكر للمتهمين فى قضايا سياسية بل يحسب للسادات أنه هو الذى نص فى دستور ١٩٧١ على محاكمة المتهمين بقضايا التعذيب ولا يسقط الاتهام بالتقادم . .

إن الاعتقالات الوحيدة التى جرت فى عهد أنور السادات هى تلك التى حدثت عام ١٩٨١ فى سبتمبر . . ولذلك كان مؤلف ليالى الحلمية على روعتها الأستاذ أسامة أنور عكاشة مخطئا تماما عندما نسب اعتقال بعض أبطال المسلسل إلى عصر السادات . .

والسادات هو الذى غرس فى الجماهير عادة مناقشة الحاكم والحوار معه . . بلقاءاته المستمرة مع القطاعات المختلفة . . معها من كل الطبقات والطوائف ، وهو أمر لم يحدث قط لا فى عهد الملكية ولا فى عهد جمال عبد الناصر . .

فأسقط بذلك إلى حد كبير حاجز الخوف والتهيب من السلطة بل الشعور بالاغتراب عنها وعن البلد كلها . . ونمى الشعور الداخلى فى كل واحد منا بأنه مسئول عن البلد مسئولية لا تقل عن مسئولية رئيس الدولة .

ولقد كان ممكناً أن تمضى المسيرة الديمقراطية . . ولكنها توقفت بل انتكست عندما جرت أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ . . فجاءت بمرحلة جديدة لنظام أنور السادات مختلفة تماماً عن المرحلة السابقة . .